الفصل الخامس

المياهُ والري

يقع الحجاز في المنطقة الصحراوية، فمناخه جاف وأمطاره نادرة ومياهه قليلة وليست فيه أنهار دائمة الجريان تكفي مياهها للإرواء والزراعة، ولكن فيه عدداً من الوديان التي تجري فيها المياه على إثر سقوط الأمطار، وبذلك تكون مياهها مؤقتة ولا تدوم طويلاً وكثيراً ما تجري فيها المياه سيولاً قوية جارفة تكتسح ما يقف أمامها، وبذلك لا تفيد في الزراعة، غير أن انخفاض قيعان الوديان كثيراً ما يجعلها رطبة فتيسر الانيات، وقد تساعد على الزراعة.

كل هذا جعل الري في الحجاز يعتمد بالدرجة الأولى على المياه الجوفية التي قد تكون قرب سطح الأرض أو تظهر على ذلك السطح.

ذكرت المصادر وجود المياه في بعض المناطق دون أن تحدد طبيعة هذه المياه، وأكثر من ذكرها ياقوت في كتابه «معجم البلدان» والبكري في كتابه «معجم ما استعجم» والسمهودي في كتابه «وفاء الوفا»، وعرام بن الأصبغ في كتابه «جبال تِهامة»، ونذكر أدناه المياه التي ذكرتها المصادر ومواضع وجودها.

وأدّى المشقق وهو في طريق تبوك فيه ماء يخرج من الأشل ما يروي الراكب والراكبين والثلاثة (ياقوت ٤ / ٥٤٤، البكري ١٢٦٦).

سمنه وهي ماء بين المدينة والشام قرب وادي القرى (ياقوت ٣ / ١٤٦).

شجر: ماء لبني القين بن جسر بين وادي القرى وتيماء (ياقوت ١ / ٩١٩).

وشجر ماء عذب في قبلي جبل العلم في طريق السالك إلى تبوك (ياقوت ٤ / ١٤٥).

الطرف ماء قرب المرقى «ياقوت ٣ / ٥٣١».

الجريب وهو بطن واد بالفرش يقال له مثعر، وهو ماء لجهينة، وإلى جانب مثعر مشجر ماء آخر لجهينة (ياقوت ٤ / ٤١٣، ٤ / ٦٥٧، البكري ٣٧ / ١٢٥٩.

بوانة قريبة منها ماءه يقال لها القصيبة وماءاً آخر يقال له المجاز (ياقوت ١ / ٧٥٤، وفاء الوفا ٢ / ٣٠٠).

عمق ماء ببلاد مزينة من أرض الحجاز (البكري ٩٦٧).

عزور جبل ماءه الثلماء وهي ماءه عليها نخل كثير وأشجار (ياقوت ١ / ٩٣٣).

تربان، فيه مياه كثيرة مرية (ياقوت ١٨ / ٨٣٣)، وقال: أبو زياد هو واد به مياه كثيرة (البكري ٣٠٨).

ويقابل القدسين عن يمين الطريق للمصعد جبلان يقال لهما نهبان نهب الأسفل ونهب الأعلى، وفي نهب الأعلى ماء عليه نخلات يقال له ذو خيم وفيه أوشال غير هذه البئر (البكري ١٠٥١).

العذيبة، قال ابن السكيت ماء بين ينبع والجار (البكري ٩٧٢).

المريسيع وهو اسم ماء في ناحية قديد إلى الساحل (البكري ١٢٢٠).

وقال ابن السكيت هي حساء على شاطئ البحر فوق العذيبة، وقال في موضع آخر في غيقه مويهة عليها نخل بطرف جبل جهينة الأشعر (ياقوت ٣ / ٨٢٩).

قال عرام إذا خرجت من عسفان لقيت البحر وانقطعت الجبال إلا أودية مسماة بينك وبين مر الظهران أن يقال لواد منها مسيحة ولوادٍ آخر مدركة وهما واديان كبيران بهما مياه كثيرة منها ماء يقال له الحديبية بأسفله مياه تنصب من رؤوس الحَرّة مستطيلين إلى البحر (ياقوت ٤ / ٤٤٩ عرام ٤١٥ مع بعض اختلاف).

الفرنق ماء بابلي بين معدن بني سليم والسوارقيه (ياقوت ٣/ ٧٨٨).

وعند أبلى . . «بحذائه حاميتان سوداوان في جوف إحداها ماء ملحة يقال لها الرمذة حواليها نخلات وأجام يستظل بها الماء (عرام ٤٣٤) (بكري ١٠١ ياقوت ٤ / ٥٨٢ انظر أيضاً البكري ٨١٣)ويروي ياقوت «الرمذة ماء في سبخه بالسوارقيه» (ياقوت ٢ / ٧٩٦).

«قال عرام إذا جاوزت عين النازيه وردت ماءة يقال لها الهبية وهي ثلاث آبار عليهن مزارع . . «ياقوت ٤ / ٩٥٦ البكري ٩٩٨، وفاء الوفا ٢ / ٣٨٦، عرام ٨ / ٤٣١).

يتبين من هذه النصوص أن المياه تطلق في الغالب على ما فيه ماء قليل كالمشقق ولكنه قد يستعمل للبئر، وكثيراً ما تكون المياه في بطون الوديان كتربان وأودية عسفان ومثعر ومشجر وقد تكون جارية كالمياه التي في أسفل الحديبية، وقد تكون عليها مزروعات كالعزور.

الآبار:

ذكرت المصادر عدداً غير قليل من الآبار تقع أغلبها على طرق المواصلات وخاصة حول المدينة، فيذكر ياقوت أن سعد قرب المدينة على طريق فيد، قصر ومنازل وسوق وماء عذب على جادة الطريق كان يسلك من فيد إلى المدينة (ياقوت ٣ / ٩١).

فأما الروحاء فيقول ابن رسته «فيها أهل وسوق صغير وماؤها من الآبار (الأعلاق النفيسة ١٧٨) وذكر السمهودي «بها آبار متعددة فلم يبق بها اليوم سوى بئر واحدة» (وفاء ٢ / ١٦٨) «وبها اليوم بركة تملا للحاج تعرف ببركة طار ولعله جددها وجعل لها معلوماً ووقفاً» وفاء ٢ / ٣١٤ و«سجسج بئر الروحاء» (البكري ٧٢٤ / ٩٥٨، وفاء ٢ / ٣١٤ عن ابن اسحق) و«بئر ذات العلم وتعرف أيضاً بالروحاء والبئر المذكور متناهية بعد الرشاء لا يكاد يلحق قعرها وهي معينة» (رحلة ابن جبير ص ١٨٨).

«وقال الأسدي وبالروحاء آبار كثيرة منها تعرف بمروان عندها بركة للرشيد، وبئر لعثمان بن عفان عليها سانية وسيل مائها إلى بركتها، وبئر تعرف بعمر بن عبدالعزيز في وسط السوق يسقى منها في إحدى الركبتين، وبئر تعرف بالواثق وهي شرابا والمنزل طول رشائها ستون ذراعاً (وفاء ٢ / ٣١٤).

«وبملل آبار كثيرة: بئر عثمان وبئر مروان وبئر المهدي وبئر المخلوع (الأمين) وبئر الواثق وبئر السدرة وعلى ثلاثة أميال من القرية عشرة أنقرة عملت في رأس عين شبيهة بالحياض وتعرف بأبي هشام» (البكري ١٢٥٦).

و«بئر الحواتكة وهي بزقب الشطان وهو بالمنصف بين عين بني هاشم التي بملل وبين عين أظم (البكري ١١٣).

أما السقيا فقد «قال السهيلي سميت السقيا بآبار كثيرة فيها وبرك، وسئل كثير لم سميت بذلك فقال لأنهم سقوا بها ماء عذباً، قال قتيبة هي عين «وفاء ٢ / ٣٢٢ وانظر البكري ٧٤٢ وعلى سبعة أميال من السقيا بئر للطلوب يتلوه لحي جمل.

أما المريسيع فهو بئر لبني المصطلق كانوا ينزلون عليه (ابن سعد ٢ ـ ١ / ٤٥) ويسميه البكري ماء (البكري ١٢٢٠).

ولعبدالله بن مطبيع بئر بين السقيا والابواء (ابن سعد ٥ / ١٢٧).

و«الجحفة ماؤها من الآبار» (ابن رسته ١٧٨).

و«رابغ فيه عين وآبار ونخل» (البكري ١٣٥٠).

«وفي ثافل الأكبر عدة آبار في بطن واد يقال له يرثد يقال للآبار الدباب وهو ماء عذب غير منزوف أنا شيط قدر قامة، وفي ثافل الأصغر ماء دوار في جوفه يقال له القاحة وهما بئران عذبتان غزيرتان» (عرام ص ٤٠١، ياقوت ١ / ٩١٤، البكري ١٣٦ وانظر عن القاحة وفاء ٢ / ٣٥٧) ومن قفا ثافل ماء يقال له معيط (البكري ـ ١٢٤٦ / ٣٣٤)».

«وقبل كراع الغميم بثلاثة أميال الجنابذ آبار وقباب ومسجد وهو المنصف

بين عسفان وبطن مر» (البكري ٩٥٧).

«وبعد كراع الغميم الذي هو قرب عسفان «موضع يقال له مسدوس آبار لبعض ولد أبي لهب» (البكري ٥٦) «وذكر الأسدي أن امج بعد خليص بجهة مكة بميلين، قال وبعده بميل وادي الأزرق ويعرف بعران، وامج لخزاعة وبه نحو عشرين بئراً يزرع عليها» (المناسك للحربي ٤٦١ (وفاء ٢ / ٢٤٩) وفي العشيرة والسيالة آبار (المناسك للحربي ٣١٢، ٤٤٣).

وبالقرب من السوارقية عدد غير قليل من الآبار والينابيع.

فيقول عرام «إذا جاوزت عين النازية وردت ماءه يقال لها الهيبة وهي ثلاث آبار ليس عليهن مزارع ولا نخل ولا شجر وهي بقاع كثيرة تكون ثلاثة فراسخ في طول ما شاء الله، وهي لبني خفاف بين حرّتين سوداوين وليس ماؤهم بالعذب أكثر ما عندها من الغبات الحمض ينتهي إلى السوارقية على ثلاثة أميال منها وهي قرية غناء كبيرة من أعمال المدينة (عرام / ٣٩٨، ياقوت ٤ / ٩٥٦، وفاء ٢ / ٣٨٦، البكري ص ٩٩).

وفوق السوارقية شوحط والصحن «وفيه ماء يقال له الهباءة وفيه ماء وهي أفواه آبار كثيرة مخرقة الأسافل يفرع بعضها في بعض الماء الطيب العذي يزرع عليها الحنطة والشعير وما أشبه» (عرام ٤٣٥، ياقوت ٣ / ٣٧١، ٤ / ٩٤٧، البكري ٨١٤ وفاء ٢ / ٣٣٤. وانظر أيضاً: عرام ٤٣١، البكري ١٠٠، ياقوت ٣ / ١٨٠. وكان في بطن نخل ثلاثمائة بئر (وفاء ١ / ١٤٩). وفي وادي الصحن ووادي بيضان آبار (عرام ٤٣٥).

العيون:

ذكرت المصادر عدداً كبيراً من العيون في الحجاز، وكثير منها يتجمع في المناطق القريبة من البحر قرب ينبع.

فيذكر مؤلف المناسك أن بينبع مائة عين غزيرة (المناسك ٤١٣، البكري ٦٥٦) ويروي عرام عن ينبع «وفيها عيون عذاب غزيرة» (عرام ٣٩٨) «وقال الشريف بن سلمة بن عياش الينبعي عددت بها ١٧٠ عيناً (ياقوت ٤ / ١٠٣٩)

ويقول السمهودي إن ينبع سميت لكثرة ينابيعها مقال بعضهم عددت بها مائة وسبعين عيناً (وفاء ٢ / ٣٩٢) ولا ريب في أن المقصود ببعضهم «هو الشريف بن سلمة المذكور في نص ياقوت، وقد أشارت المصادر إلى وفرة المياه في ينبع دون تخصيص العيون (انظر ابن حوقل ١ / ٣٣ المقدسى ٨٣).

وبالقرب من ينبع اضم وفيه عين الحب (ياقوت ١ / ٣٤٦) وآلات (ياقوت ١ / ٣٢٠) ويذكر عرام «الصفراء قرية كثيرة النخل والمزارع وماؤها عيون كلها وهي فوق ينبع مما يلي المدينة وماؤها يجري إلى ينبع (عرام / ٣٩٨، ياقوت ٣ / ٣٩٩، البكري / ٨٣٦، وفاء ٢ / ٣٢٥).

وينبع «واديها يليل يصب في غيقة. . وفي يليل هذه عين كبيرة تخرج من جوف رمل من أعذب ما يكون من العيون وأكثرها ماءً، تجري في رمل فلا تمكن الزارعين عليها إلا في مواضع يسيرة من أحفاء الرمل فيها نخيل وتتخذ البقول والبطيخ وتسمى هذه العين البحير (عرام / ٣٩٨، ياقوت ٢ / ٥)، ومن هذه العين شرب أهل الجار وهي تبعد فرسخين (عرام /٣٩٨، ياقوت ٢ / ٥، البكري / ٣٥٥).

وبقرب هذه المنطقة الحرزة وهي من أودية الأشعر يفرغ في القفارة. . وبه المليحة وبأسفله العين التي تدعى سويقة (وفاء ٢ / ٢٩١) ويقول البكري: «إن الحرزة موضع تلقاء سويقة لآل الحسن بن حسن بن علي بن أبي طالب»(البكري / ٤٤١).

ويقول السمهودي: «سويقة عين عذبة كثيرة الماء بأسفل حرزة على ميل من السيالة ناحية عن الطريق يمين المتوجه إلى مكة لولد عبدالله بن حسن» (وفاء ٢ / ٣٢٦ - ١٦٦).

ويقول البكري: «البثنة أرض تلقاء سويقة بالمدينة اعتملها عبدالله بن حسن بن حسن. . وبأسفل الحورة عين عبدالله بن الحسن التي تدعى سويقة

ثم تنفذ بين السفح واعشاش وبها ذات الشعب وبها المليحة» (البكري ١٥٦).

ويقول الزمخشري: «بين عين بواد يقال له حورتان». (وفاء ٢ / ٣٩٣).

ويقول السمهودي عن بين «وسيلهما يصب في حورتين فلا تخالف وأثر العين والقرية اليوم موجودة هناك». (وفاء ٢ / ٣٩٣).

لقد ذكرنا من قبل أنه على بعد ميل من سويقيه تقع السيالة (وفاء ٢ / ١٦٦ ـ ٣٢٦). ويذكر السمهودي أن السيالة بها آبار كثيرة.. وكانت قد تجدد منها بعد النبي عيون وسكان (وفاء ٢ / ١٦٦).

وفي هذه المنطقة أيضاً يقع عيود «وبطرفه عين الحسن بن زيد على الطريق منقطعة فيها يقول ابن معقل الليثي: قد ظهرت عين الأمير مظهراً بسفح عيود أتته من مرا» (وفاء ٢ / ٤٤١).

ومن المناطق التي تكثر فيها العيون شمنصير فيقول عرام «شمنصير وهو جبل ململم لم يعله أحد قط ولا درى ما على ذروته.. والمياه حواليه ينابيع عليها النخيل والحماظ». (عرام ٤٠٩). «وقال ابن جني في كتاب هذيل لقد قرأت بخطه شمنصير جبل سايه، وسايه واد عظيم به أكثر من سبعين عيناً وهو وادي أمج.. (ياقوت ٣ / ٢٦ / ٣٢٢) انظر أيضاً (بكري ٨١١، وفاء ٢ / ٣٢١) «والكديد بين امج وعسفان.. وهو ماء عين جاريه عليها نخل كثير» (البكري ١١١٩). «الجحفة وبها آبار يسيره وعلى ميلين عين وبها بركة كبيرة ربما عزّبها الماء (المقدسي ٥٧) وفي رابغ عين وآبار ونخل» (البكري ص ١٣٥٠).

«وبطيف بذره قرية من القرى يقال لها جبله في غربيه والستار قرية تتصل بجبله ووواديها واحد يقال له لحف وبه عيون.. وفي شرقي ذرة قرية يقال لها القصر وقرية يقال لها الشرع وهما شرقيتان، في كل واحدة من هذه القرى مزارع ونخيل على عيون وهي على واد يقال له رحيم؛ ومن أودية الحاضرة وبها

قبر عبدالعزيز بن محمد بن عبدالعزيز بن عمر بن عبدالرحمن عوف وهي عين لهم، ويصب على الحاضرة البلى وفيه نخل وهو لمحمد بن ابراهيم اللهبي، ثم يلي الحاضرة تبرز وبه عيون صغار عين لعبدالله بن محمد بن عمران الطلحي يقال لها الأذنبة وهي خير ماله، والضليل لمبارك التركي وعيون تبدد في أسنان الجبال». (البكري ١١٢ ـ ٣).

ومن الأماكن التي فيها العيون والينابيع السقيا فيروي السمهودي عن الأسدي.. وبالسقيا مسجد لرسول الله ﷺ إلى الجبل وعنده عين عذبة «ثم ذكر أن بالسقيا أزيد من عشر آبار وأن عند بعضها بركة، ثم قال وفيها عين غزيرة» ومصبها في بركة في المنزل وهي تجري إلى صدقات الحسن بن زيد عليها نخل وشجر كثير وكانت قد انقطعت ثم عادت في سنة ٢٤٣ ثم انقطعت في سنة ٢٥٣، قال وعلى ميل من المنزل موضع فيه نخل وزرع وصدقات للحسن بن زيد فيها من الآبار التي يزرع عليها ثلاثون بئراً وفيها ما حدث في أيام المتوكل خمسون بئراً وماؤهن عذب وطول رشائهن قامة وبسط وأقل وأكثر، (وفاء ٢ /).

ويقول الأسدي أيضاً عند الكلام عما بين ودّان والسقيا: «وإن في الوسط بينهما عين القسيري وهي عين كثيرة الماء.. قال.. وفي وسط الأبواء مسجد لرسول الله وذكر بها آباراً وبركاً منها بركة بقرب القصر.. وبه عيون غزيرة عليها سبعة مشارع وبركة قديمة». (وفاء ٢ / ١٧٢، وانظر عن عيون السقيا البكري ٧٤٢).

«وقال الأسدي.. وعلى ثلاثة أميال من السقيا عين يقال لها تعهن.. وقال: إنها عين ماء خربة.. وقال عياض تعهن عين ماء سمي بها الموضع وهي ثلاثة أميال من السقيا». (وفاء ٢ / ٢٧١ ـ ٢).

ومن المناطق التي تتوفر فيها الينابيع الفرع «وبها منبر ونخل ومياه كثيرة وهي قرية غناء كبيرة وأجمل عيونها عينان غزيرتان إحداهما الربض والأخرى

النجف يسقيان عشرين ألف نخلة». (وفاء ٢ / ٣٥٦).

ويقول عرام: «ومن عن يسار الطريق مقابلاً قدسا الأسود جبل من اشمخ ما يكون يقال له آرة وهو جبل آحر تخر من جوانبه عيون على كل عين قرية، فمنهـا قرية غناء كبيرة يقال لها الفرع وهي لقريش والأنصار ومزينة، ومنها أم العيال قرية صدقة فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وعليها قرية يقال لها المضيق، ومنهـا قرية يقال لها المحضة، ومنها قرية يقال لها الوبرة ومنها قرية يقال لها خضرة ومنها قرية يقال بها، الغفوة، تحف آره من جميع جوانبه وفي كل هذه القـرى نخيل وزروع وهي من السقيا على ثلاث مراحـل من عن يسـارها». (عرام / ٤٠٥، وفاء ٢ / ٢٣٩) ومن عيون الفرع أم العيال (النسب للزبير بن بكار ٥٢، جمهرة النسب لابن حزم ١٤٠، البكري ٢٠٢١، ياقوت ٣ / ٨٧٨).

وتوجد بعض الينابيع قرب السوارقية فيروي عرام بعد الكلام عن وادي عريفطان «وحذاءه قنة يقال لها السودة لبني خفاف من بني سليم وماؤهم الصعبية وهي آبـار ينزع عليها وهو ماء عذب وأرض واسعة، وكانت بها عين يقال لها النازية بين بني خفاف وبين الأنصار فتضاربوا فسدوها وهي عين ماؤها عذب كثير وقـد قتـل ناس بذلـك السبب كثير وطلبهـا سلطان البلد مراراً بالثمن الكثير فأبـوا..». (عـرام ٤٢٨، ياقوت ٤ / ٩٥٦، البكري ٩٩ ـ ١٠٠، وفاء ٢ / ٣٨١ / ٣٨٦).

و «الرحضية.. حذاءها قرية أو ارض يقال لها الحجر وبها مياه وعيون وآبار لبني سليم». (عرام ٤٢٧).

ومن المواضع التي ذكرت المصادر فيها عيون:

بدر: وكانت فيها عينان (المناسك ٤١٩، البكري ٢٣١).

يليل: وفيها عين البحير (عرام ٣٩٨، البكري ٨٣٦، ياقوت ٥١١٨).

الصفراء: (عرام ٣٩٨، البكري ٨٣٦).

رابغ وخليص: (المناسك ٤٥٦، ٤٦١، ٥٤٢).
ورقان: (البكري ١٣٧٧).
الظهران: (ياقوت ٣ / ٥٨١).
مران: (وفاء الوفا ٢ / ١٢٨٧).
رهاط: (المناسك ٢١٩، البكري ٢٣١).

أمواه منوعة:

ذكرت المصادر أنواعاً من الأمواه، منها:

الغدران

وأشهرها غدير خم قال عرام: «إنه دون الجحفة على ميل وإن واديه يصب في البحر لا ينبت غير المرخ والتمام والأراك والعشر، وإنه من نحو مطلع الشمس لا يفارقه ماء أبداً من ماء المطر». (عرام ٤١٣) وقال الأسدي إنه على ثلاثة أميال من الجحفة يسرة عن الطريق، حذاء العين مسجد لرسول الله وبينهما الغيضة وهي غدير خم وهي على أربعة أميال الجحفة.

وقال عياض غدير خم غدير تصب فيه عين، وبين الغدير والعين مسجد للنبي ﷺ وقال النووي اسم لغيضه على ثلاثة أميال من الجحفة عندها غدير مشهور (وفاء ٢ / ٣٠١).

وذكرت المصادر أيضاً «غدير الأشطاط قريب من عسفان» (ياقوت ١ / ٢٧٩) وبالقرب من ذي رولان، غدير يقال له المختبى لأنه بين عضاه وسد وسلم وخلاف (عرام / ٤٢٨)، وغدير يقال له غدير السدرة من أنقاها ماءً وليس حواليه شجر (عرام ٤٢٨) وهو قرب السوارقيه.

وبالقرب من السوارقية أيضاً «ذو مجر غدير كبير في بطن وادي قوران هذا وبأعلاه ماء يقال له لقف ماء آبار كبيرة عذب ليس عليه مزارع (عرام / ٢٣٣، ياقوت ٣ / ١٩٨ / ٤١٩ البكري ص ١٠٠ وفاء ٢ / ٣٦٨).

الأوشال

يقول عرام «الوشل ماء يخرج من شاهقة لا يطورها أحد ولا يعرف منفجرها وليس شيء من تلك الأوشال يجاوز الشقه». (عرام ٣٩٧).

ويقول ابن منظور: «الوشل الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة يقطر فيه قليلاً قليلاً لا يتصل قطره وقيل لا يكـون ذلك إلا من أعلى الجبل، وقيل هو ماء يخرج من بين الصخر قليلاً قليلاً والجمع أوشال، وجبل أوشل يقطر منه الماء. . أبو عبيد الوشل ما قطر من الماء وقد وشل يشل.

قال أبو منصور: ورأيت في البادية جبلاً يقطر في لجف منه من سقفه ماء فيجتمـع في أسفله يقـال له الوشل، والأوشال مياه تسيل من أعراض الجبال فتجتمع ثم تساق إلى المزارع رواه أبو حنيفة (لسان العرب ١٤ / ٢٥١).

ذكر عدد غير قليل من الأوشال في الحجاز، فذكر عرام أن جَبَلَيْ رضوى وعزور فيهما مياه أوشال (عرام ٣٩٧).

وأن «قـدس» وفيها أوشال كثيرة وذكر أن جبلَيْ نهبان الأسفل والأعلى وهما يقـابـلان قدس عن يمين الـطريق للمصعـد، وأن نهب الأعلى فيه ماء عليه نخلات يقال لها ذو حيم وفيه أوشال هذه البئر» (عرام ٤٠٣، البكري ١٠٥٠).

و«شواحط وهو جبل قرب السوارقية وفيه أوشال». (عرام ٤٣٤ ياقوت ٣ / ٣٣١ وفاء ٢ / ٣٣١).

وذكر أن جبال السارة فيها أوشال عِذاب وعيون غير قرقد ويسوم فليس فيها إلا ما يجتمع في القلات من مياه الأمطار بحيث لا ينال ولا يعرف مكانه (عرام ٤١٧).

و «جبال عرفات تتصل بها جبال الطائف وفيها مياه كثيرة أوشال وكظائم فقر». (عرام ٤١٩).

«وقال ابن اسحق في غزوة تبوك وكان في الطريق ماء يخرج من وشل ما يروي الراكب والراكِبَيْن والثلاثة بواد يقال له المشقق». (ياقوت ٣ / ٥٤٢، البكري ١٢٦٦).

الاحساء

«وقيل غيقه خبت من ساحل بحر الجار فيه أودية ولها شعبتان أحدهما يرجع فيها والأخرى في بليل وهو بوادي الصفراء.

وقال ابن السكيت غيقه حساء على شاطىء البحر فوق العذيبة، وقال في موضع آخر «غيقه مويهة عليها نخل بطرف جبل جهينة الأشعر» (ياقوت ٣ / ٨٢٩، وفاء ٢ / ٣٥٤).

البرك

ويذكر المقدسي أن امج بها بركة وقناة. (المقدسي ٧٩).

ويقول ابن رسته: إن «الرويثة وفيه برك وفيه الماء الذي يقال له الاحساء. (الاعلاق النفيسة ٧٨) و قال السهيلي سميت السقيا بآبار كثيرة فيها وبرك. (وفاء ٢ / ٣٢٢).

البثور

يقول عرام «وفي حد تباله قرية يقال لها رنية وقرية يقال لها بيشة وتثليث وبيمبم والعقيق عقيق تمرة، وكلها لعقيل مياهها بثور، والبئر يشبه الاحساء يجري تحت الحصى على مقدار ذراع وذراعين ودون الذراع وربما أثارته الدواب بحوافرها». (عرام / ٤٢١).

الحياض

يذكر أبو عبدالله محمد بن أحمد الأسدي في وصف الطريق بين مكة والمدينة أن من ذي الحليفة إلى الحضيرة ستة أميال قال وهي متعشا وبها بئر طيبة وحوض، وعمر بن عبدالعزيز هو الذي حفر البئر (وفاء ١ /٦٩).

وذكر الأسدي بالرويثة من الآبار والحياض (وفاء ٢ / ١٦٩).

الجنابذ

يقول البكري «وقبل كراع الغميم بثلاثة أميال الجنابذ آبار وقباب ومسجد وهو المنصف بين عسفان وبطن مر (البكري ٩٥٧).

الرياض

يقول ياقوت «الأجاول وهو موضع قرب ودّان فيه روضة ذكرت في الرياض، وقال ابن السكيت الأجاول أبارق بجانب الرمل عن يمين كلفي من شماليها». (ياقوت ١ / ١٣١).

الاعذاء

يقول عرام «ثم يتصل بخلص آره ذره وهي جبال كثيرة متصلة ضعاضع ليست بشوامخ في ذراها المزارع والقرى وهي لبني الحارث بن بهثة بن سليم وزروعها اعذاء، ويسمون الاعذاء العثرى وهو الذي لا يسقى ولهم عيون ماء في صخور لا يمكن أن يجروها إلى حيث ينتفعون به». (عرام ٤١٧).

القنان

يقول عرام: «وفي أبلى مياه ومنها بئر معونة وذو ساعدة وجماجم أو حماحم ـ شك ـ والوسباء وهذه لبني سليم وهي قنان متصلة بعضاً إلى بعض (عرام ٤٢٩) وهو يقول عن «وحواليها قنان ـ وواحده قنه ـ وضعاضع خفار ـ واحداها ضعاضع ـ والقنان والضعاضع جبال حفا ـ لا تسمى (٣٩٨) ويقول عند كلامه عن جبال السراة «وفي هذه الجبال أوشال عذاب وعيون غير قرقد ويسوم فليس فيها إلا ما يجتمع في القلات من مياه الأمطار بحيث لا ينال ولا يعرف مكانه». (عرام ٤١٧).

الاحباس والمصانع

ذكرت المصادر عدداً من الأحباس في الحجاز، ووردت في تعريف الحبس عدة أقوال، فيقول عارم: والحبس حجارة مجتمعة يوضع بعضها على بعض قال الشاعر:

وإن التفـاني نحـو حبس ضعـاضـع وإقبـال عيني في الـضبـا لطويل
(عرام ٤١٠، ياقوت ٣ / ٤٧٥).

ويقول ابن منظور: والحبس كل ماسد به مجرى الوادي في أي موضع حبس، وقيل الحبس حجارة أو خشب تبنى في مجرى الماء لتحبسه كَيْ يشرب القوم ويسقوا أموالهم والجمع أحباس سمى الماء به حبساً كما يقال نهى، قال الفرزرعة التيمي:

من كعـثـب مستـوفـر الـمجس راب منـيف مثـل عرض الـترس
فشـمـت فيهـا كعـمـود الـحبس أمـعـسـهـا يا صاح أي معس
حتـى شفيت نفـسـهـا من نفـسي تلك سليمـي فاعـلمـن عرس

وفي الحديث أنه سأل اين حبس سيل فإنه يوشك أن يخرج منه نار تضيء منها أعناق الإبل ببصري هو من ذلك.

وقيل هي فلـوق في الحَرّة يجتمع فيها ماء لو وردت عليه أمة لوسعها، أبو عمر والحبس مثل المصنعة يجعل للماء وجمعه أحباس، والحبس الماء المستنقع.

قال الليث شيء يحبس به المـاء نحـو الحباس في المزرفة يحبس به فضول الماء، والحباسة في كلام العرب المزرفة، وهي الحباسات في الأرض وقد أحاطت بالدبرة وهي المشارة يحبس فيها الماء حتى تمتلىء ثم يساق الماء إلى غيرها.

ابن الأعرابي. . الحبس حجارة تكون في فوهة النهر تمنع طغيان الماء (لسان العرب ٧ / ٣٤٥).

ويقول ابن سيده «أبو عبيد: الحبس مثل المصنعة وجمعه أحباس وهو الماء المستنقع. ابن السكيت الحبس حجارة تبنى على مجرى الماء ليحتبس فيشرب منه القوم ويسقوا مواشيهم أبو حنيفة كل مصنعة حبس والجمع أحباس.

صاحب العين وهي الحباسة (المخصص ١٠ / ٥٣).

وذكرت المصادر عدداً من الأحباس في الحجاز فذكر ياقوت:

قال الزمخشري: الحبس جبل لبني قرة، وقال غيره الحبس بين حَرّة بني سليم والسوارقية وفي حديث عبدالله بن حبش تخرج نار من حبس سبل، قال أبو الفتح نصر حبس سيل ورواء إحدى حرتي بني سليم بينهما فضاء كلتاهما أقل من ميلين، وقال الأصمعي: الحبس جبل مشرف على السلماء لو انقلب لوقع عليهم (ياقوت ٢ / ١٩٦ وفاء ٢ / ٣٨٤) ويقول ابن منظور «حبس سيل اسم موضع بحَرّة بني سليم بينها وبين السوارقية مسيرة يوم وقيل حبس سيل» (لسان العرب ٧ / ٣٤٥).

ويقول عرام أن شمنصير «وبغربيه قرية يقال لها الحديبية ليست بالكبيرة وبحذائها جبيل يقال له ضعاضع وعنده حبس كبير يجتمع عند الماء (عرام ٤١٠، ياقوت ٣ / ٤٧٤، البكري ١٠) يتبين من أقوال اللغويين التي ذكرناها أعلاه الحبس يسمى أيضاً المصنعة.

وفي تعريف المصانع يقول ابن منظور: الصنع الحوض، وقيل شبه الصهريج يتخذ للماء، وقيل خشبة يحبس بها الماء وتمسكه حيناً، والجمع من كل ذلك أضاع، والصناعة كالصنع التي هي الخشبة، والمصنعة كالصنع الذي هو الحوض أو شبه الصهريج يجمع فيه ماء المطر، والمصانع أيضاً ما يصنعه الناس من الآبار والأبنية وغيرها، قال لبيد:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الدار بعدنا والمصانع

قال الأزهري سمعت العرب تسمي أحباس الماء الأصناع والصنوع واحدها صنع. والزلف المصانع، قال الأصمعي وهي ما سكات لماء السماء يحتفرها الناس فيملؤها ماء السماء يشربونها، وقال الأصمعي: العرب تسمي القرى مصانع واحدتها مصنعة قال ابن مقبل:

أصوات نسوان أنباط بمصنعة بجدن للنوح واجتبن التبابينا

والمصنعة والمصانع الحصون، قال ابن بري شاهده في قول البعيث:

بنـي زياد لذكـر الله مصـنـعـة من الحجـارة لم ترفـع من الـطين

وفي الحديث من بلغ الصنع بسهم الصنع بالكسر، المواضع يتخذ للماء وجمعه أصناع وقيل أراد بالصنع هنا الحصن (لسان العرب ١٠ / ٥٧٩).

وذكر ابن سيده قول ابن دريد: المصنعة والصنع الموضع يتخذ ويحتفر فيه بركة يحتبس فيها الماء.

ويقـول الخليل الصناعة والصنع خشبة يحبس بها الماء، ويقول أيضاً «وهي الأصناع وكل ما اتخذ من بئر أو بناء مصنعة». (المخصص ١٠ / ٥٣).

لم يذكـر من كتب عن جغرافية الحجاز وأماكنها المصانع في الحجاز ولكن ذكرها في الحديث أن صح يدل على وجودها، أو قد يدل على أنها كانت تسمى كذلك، ثم أبدل اسمهـا بالأحباس، وقد ذكرت عدة مصانع في جزيرة العرب.

الزلف

إن إشارة ابن منظور إلى أن الزلف هي المصانع تتكرر أيضاً في مكان آخر، الزلفة المصنعة والجمع زلف، قال لبيد:

حتـى تحـيرت الـديار كأنـهـا زلـف وافـى قتـبـهـا الـمحـزوم

(لسان ج ١١ ص ٣٩، مخصص ج ١٠ ص ٥٣).

وأورد ابن بري هذا البيت شاهداً على الزلف جمع زلفة وهي الحجارة، قال وقال أبو عمرو والزلف في هذا البيت مصانع الماء وأنشد الجوهري للعماني:

حتـى إذا ماء الـصـهـاريج نشـف من بعـد ما كانـت ملاء كالـزلـف

قال وهي المصانع، وقال أبو عبيدة هي الأجاجين الخضر، قال وهي المزالف أيضـاً، وفي حديث يأجـوج ومأجوج «ثم يرسل الله مطراً فيغسل الأرض حتى

يتركها كالزلفة وهي مصنعة الماء»، أراد أن يغدر الأرض فتصير كأنها مصنعة من مصانع الماء.

وقبل الزلفة المرآة شبهها بها لاستوائها ونظافتها، وقيل الزلفة الروضة، ويقال بالقاف أيضاً وكل ممتلىء من الماء زلفة، وأصبحت الأرض زلفة واحدة على التشبيه كما قالوا أصبحت قروا واحداً.

وقال أبو حنيفة الزلف الغدير الملآن. قال الشاعر:

جثجاثها وخزاماها وثامرها هبائب تضرب النغبان والزلفا

وحكى ابن بري عن أبي عمر الزاهد قال الزلفة ثلاثة أشياء. البركة والروضة والمرآة، قال وزاد بن خالويه رابعاً أصبحت الأرض زلفة ودثة من كثرة الأمطار (لسان ١١ / ٣٩ - ٤٠).

وانظر أيضاً عن حديث يأجوج ومأجوج (ابن ماجه فتن ١١٠، ابن حنبل ١٨٢/٤) ويذكر صاحب العين: الخرنق مصنعة الماء (مخصص ١٠/٥٣ لسان ١١/٣٦٥).

لم تذكر كتب الجغرافية والبلدان في الحجاز زلفة والخرنق ولكن ورودها في الحديث قد يدل على أن استعمال الكلمة أبطل بعد الرسول وحل محله الحبس، أو أنه كان محلياً.

الفقر

ومن وسائل الري أيضاً الفقر، والفقر والقنا واحد، وواحد الفقر فقير (عرام ٤١٣)

ويقول البكري «الفقر القنى تحت الأرض وأحدها فقير». (البكري ٧٨٦).

ويروي ابن سيده أبو عبيدة القناة التي تجري تحت الأرض وجمعها قنى ويقال لضمها الفقير وجمعه فقر وهو الصنبور وقد تقدم الصنبور في المزاردة. (المخصص ١٠ / ٣٣).

ويقـول ابن منظور «الفقير فم القناة التي تجري تحت الأرض. . وقيل الفقير مخرج الماء من القناة (لسان ١ / ٣٧١).

وقد ذكرت في الحجاز عدة أماكن تروي بالفقر، فيقول عرام: ثم يطلع من الشراة على ساية وهو واد بين حاميتين وهما حرتان سوداوان وبه قرى كثيرة مسماة، وطرق كثيرة من نواحي كثيرة. . . فأعلاها قرية يقال لها الفارع بها نخل كثيرة وسكانها من كل أفناء الناس، ومياهها عيون تجري تحت الأرض، فقر كلها والفقر والقنا واحد، وواحد الفقر فقير.

ثم أسفل منها مهايع. . ثم خيف يقال له خيف سلام، والخيف ما كان مجنباً عن طريق المسك يميناً وشمالاً متسعاً. . . ومياهها فقر أيضاً وباديتها قليلة. . .

وأسفـل من ذلك خيف ذي القبر. . وماؤه فقر وعيون تخرج من ضفتي الوادي كلتيهما (عرام ٤١٣ ـ ٤١٤)، انظر أيضاً البكري ٧٨٦ عن الفارع، وعن الخيوف (ياقوت ٢ / ٥٠٨، البكري ٧٨٧).

ويذكر عرام عند كلامه عن جبال مكة «ثم جبال عرفات تتصل بها جبال الطائف وفيها مياه كثيرة أوشال وكظائم فقر منها المشاش وهو الذي يخرج بعرفات ويتصل إلى مكة». (عرام ـ ٤١٩).

المسك

يعـرف عرام المسـك بأنها «هي مواضع تمسك الماء واحدها مساك». (عرام ٣٩٧).

ويقول ابن منظور «والعرب تقول للتناهي التي تمسك ماء السماء مسـاك ومساكة ومساكات. . أبو زيد المسيك من الأساقي التي تحبس الماء فلا ينفح وأرض مسيكة لا تنشف الماء لصلابتها (لسان العرب ١٢ / ٢٧٩).

وقد ذكرت المسك في الحجاز فيقول عرام عند الكلام عن رضوى وعزور

«ويصب الجبلان في وادي غيقة، وغيقة تصب في البحر ولها مسك». (عرام ٣٩٧).

ويقول عند الكلام عن وادي ذورولان: وبأعلى هذا الوادي رياض تسمى الفلاج جامعة للناس أيام الربيع وفيها مسك كثيرة يكتفون به صيفهم وربيعهم إذا أمطروا وليس بها آبار ولا عيون. (عرام ـ ٤٢٧).

ماء السماء والسد

يذكر عرام أن شوران فيه مياه سماء كثيرة يقال لها البجرات وكرم وعين واماء وهو ما يكون السنين ويذكر أيضاً «والسد ماء سماء أمر رسول الله ﷺ بسده. ومنها القرقرة ماء سماء لا تنقطع هذه المياه لكثرة ما يجتمع فيها ومن السد قناة إلى قبا (عرام ٤٢٥).

ويروي السمهودي وفي قاموس المجد: اضم جبل والوادي الذي فيه المدينة النبوية عند المدينة يسمى قناة ومن أعلى منها عند سد الشظاة ويسمى عند المدينة القناة (وفاء ٩٢ / ٢٤٧، ياقوت ١ / ٢٨١ ـ ٣٠٥، ٤ / ٢٨١).

ويروي السمهودي السد ماء سماء في حرم بني عوال، ولعله يعني السد الذي في الطريق التي كان الرشيد يسلكها من المدينة إلى معدن بني سليم بين المدينة والرحضية على عشرين ميلاً من المدينة قاله وبه ماء كثير في شعب كان معاوية عمل له سداً يحبس فيه الماء شبيها بالبركة (وفاء ٢ / ٣٢١).

المياه في مكة:

تطلبت الأحوال الخاصة في المدن اتخاذ تدابير لتنظيم أمور المياه، بما في ذلك السيطرة على الفيضانات والسيول، وحفر الآبار والعيون، ووضع تشريعات خاصة بتنظيم مجرى المياه في الوديان وما يتفرع منها، وقد وصلتنا معلومات مفصلة عما كان قائماً في مكة والمدينة في العهود الإسلامية الأولى.

فأما عن الأحوال في مكة فإن الأزرقي وهو أقدم كتاب واسع وصلنا عن

أحوالها، عقد فصلاً عن سيول مكة أشار فيه إلى بعضها في الجاهلية، وفصّل في السيول الجارفة التي حدثت بعد الإسلام، وأضاف ناشر الكتاب ملحقاً بالسيول التي اجتاحت مكة بعد زمن الأزرقي، وذكر الأزرقي ما عمله الخلفاء للسيطرة على مياه السيول.

السيول وضبطها: السدود:

فذكر الأزرقي أنه حدث في سنة ١٧ هـ سيل قوي اجتاح وديان مكة وأغرق المسجد الحرام وما حوله «فعمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تلك السنة الردم الذي يقال له ردم عمر، وهو الردم الأعلى من عند دار جحش بن رئاب التي يقال لها دار ابان بن عثمان إلى دار أبيه، فبناه بالظفائر والصخر العظام، فسمعت جدي يذكر أنه لم يعله سيل منذ رَدَمَهُ عمر إلى اليوم، وقد جاءت بعد ذلك أسيال عظام، كل ذلك لا يعلوه منها شيء».

ويذكر أيضاً أنه في سنة ٨٠ هـ كان سيل الجحاف في وقت الحج، فباغت الناس يوم التروية، فذهب بهم وبمتاعهم وأحاط بالكعبة، وجاء دفعة واحدة وهدم الدور الشوارع على الوادي، وقتل الهدم ناساً كثيرين، ورقى الناس في الجبال واعتصموا به.. فكتب عبد الملك إلى عامله على مكة يأمره بعمل ظفاير للدور الشارعة على الوادي للناس من المال الذي بعث به وعمل رداً على أفواه السكك يحصن بها دور الناس من السيول، وبعث رجلاً نصرانياً في عمل ظفائر المسجد الحرام وظفائر للدور من جنبي الوادي، وكان من ذلك الرَّدم الذي يقال له ردم الحزامية على خط الحزامية، والردم الذي يقال له ردم بني جمح، وليس لهم ولكن لبني قراد الفهريين فغلب ردم بني جمح.. فأمر عامله بالضحر العظام فنقلت على العجل وحصر الأرباض دون دور الناس فبناها وأحكمها من المال الذي بعث به.. ومن تلك الظفائر أشياء إلى اليوم قائمة على حالها من دار ابان بن عثمان التي هي عند ردم عمر، هلم جراً إلى دار ابن الجوار فتلك الضفاير التي في ارباض تلك الدور كلها مما عمل من ذلك المال.

وأما أظفار دار اويس التي بأسفل مكة ببطن ثحر الوادي فقد اختلف فيها

علينا من أمرها، فقال بعضهم: هي من عمل عبدالملك، وقال آخرون: لا بل هي من عمل معاوية بن أبي سفيان، وهو أثبتهما عندنا (أخبار مكة ٢ / ١٣٥ - ٦) وانظر من ردم بني جمح وكان يقال له (ردم بني قراد ٢ / ٢١٣).

وذكر البلاذري ردمى عمر بن الخطاب وعبدالملك بن مروان فذكر عن ردم عمر «أقبل السيل حتى دخل المسجد من أعلى مكة فعمل عمر الردمين جميعاً: الأعلى بين داربة وهو عبدالله بن الحارث ودار ابان بن عثمان بن عفان، والأسفل عند الحمارين وهو الذي يعرف بردم أبي أسيد (فتوح البلدان ٥٢ عن ابن الكلبي)، ويلاحظ أن البلاذري ذكر لعمر ردمين، أما الأزرقي فذكر له ردماً واحداً».

وأما ردم عبدالملك فإن البلاذري ذكر حدوث سيل الجحاف سنة ٨٠ هـ وعلى أثره كتب عبدالملك إلى عامله على مكة يأمره بعمل ضفائر الدور الشارعة على الوادي وضفائر المسجد، وعمل الردم على أفواه السكك لتحصن دور الناس وبعث لعمل ذلك رجلاً نصرانياً فاتخذ الضفائر وردم الردم الذي يعرف بردم بني قراد، وهو يعرف ببني جمح، واتخذت ردوم بأسفل مكة. (فتوح البلدان ٥٣).

وذكر الأزرقي أنه في زمن المأمون حدث سيل عظيم ذهب بأناس كثير وهدّم دوراً كثيرة مما أشرف على الوادي «فأرسل بمال عظيم فأمر أن يعمل به في المسجد ويبطح ويعزق وادي مكة فعزق منه وادي مكة وعمر المسجد الحرام وبطح، ثم لم يعزق وادي مكة حتى كانت سنة ٢٣٧ فأمرت أم أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله باثني عشر ألف دينار لعزقه فعزق بها عزقاً مستوعباً (٢ / ١٣٨)، غير أن المصادر لم تذكر تفاصيل عن ماهية العزق الذي حدث في زمن المأمون والمتوكل.

العيون:

ومن أبرز مشاريع الري في مكة هي عين زبيدة، ويذكر الأزرقي أنها

كانت من الأصيل عيوناً في الحِلّ أي خارج حرم مكة، فيها عين مشاش، فاتخذت لها بركاً تكون السيول إذا جاءت تجتمع فيها ثم أجرت لها عيوناً عن حنين، فصرفت عينه إلى البركة وجعلت حائِطَهُ سدار تجتمع فيه السيل (أخبار مكة ٢ / ١٨٧).

وقد علق السيد رشدي ملحس على نص الأزرقي بقوله: عين حنين أو عين زبيدة تنبع من جبل شاهق يقال له طار يقع جبال الثنية.. في طريق مكة الطائف.. وكان يجري الماء من قبل طار إلى حائط حنين فاشترت السيدة زبيدة ذلك الحائط وأجرت الماء في قنوات إلى مكّة كما أشار إلى ذلك الأزرقي..

وأجرت السيدة زبيدة عيناً أخرى من وادي نعمان فوق عرفات تنبع من ذيل جبل كرا في منتهى وادي نعمان وتجري منه إلى موضع بين جبلين شاهقين في علو أرض عرفات إلى البرك التي في عرفات ونرجح أن هذه البرك من عمل عبدالله بن عامر بن كريز فتمتلىء منه يشرب منه الحجاج في يوم عرفات ثم استمر عمل القناة إلى أن خرجت من أرض عرفات إلى خلف طريق ضب المعروف اليوم باسم القناطر فإلى مزدلفة ومنها إلى بئر مطوية عظيمة تسمى بئر زبيدة الواقعة خلف منى في وادي عرفة (أخبار مكة للأزرقي ٢ / ٢٦٥).

الآبار:

اعتمد أهل مكة في الحصول على حاجاتهم من الماء على الآبار بالدرجة الأولى. وذكر البلاذري (فتوح ٢٥٠٠٤٧) والأزرقي ٢/١٧٣، وانظر ١/١٤ الآبار التي كانت في مكة قبل الإسلام وبعده فأما الآبار التي كانت قبل الإسلام، فذكروا أسماء ٢٨ بئراً منها ستة خارج الحرم، وهي ترجع إلى قبل زمن رئاسة قصي، أما الباقية فكلها في داخل الحرم، وأكثرها في بطن مكة، وبعضها منسوب إلى العشائر، وبعضها إلى أفراد بارزين من عشائر مكة، أما الآبار التي أنشئت بعد الإسلام فذكر البلاذري والأزرقي سبعة آبار وأضاف الأزرقي إليها تسعة آبار، ولم يرد في الأخبار ذكر لبيع هذه الآبار أو شروط للإفادة من مائها،

والرّاجح أن استعمالها كان مشاعاً ومجانيّاً وأنّها كانت تسد الحاجة في الأوقات الاعتيادية ولكنها لا تكفي لسد الحاجة في موسم الحج.

ويذكر الأزرقي أنّه عندما حفر عبدالمطلب زمزم أصبحت معتمد الناس، وخاصة الحجاج في التزود بالماء، وأنها بعد حفرها عفت على آبار مكة كلها (١ / ٦٤) علماً بأن ماء زمزم مج.

ولم يرد في المصادر استعمال مياه الآبار في مكة للزراعة.

البرك:

يروي البلاذري «كانت قريش قبل جمع قصي اياها وقبل دخولها مكة تشرب من حياض مصانع على رؤوس الجبال ومن آبار (فتوح البلدان ٤٧).

غير أن المصادر لم تذكر أسماء المصانع والحياض حول مكة، وإنما ذكر الأزرقي حياض زمزم في المسجد الحرام، وحياض ابن هشام بمفضى مأزمي منى (الأزرقي ٢ / ٢٢٤).

أنشئت في مكة عدة برك، من أقدمها وأشهرها بركة القسري وقد نسبت إلى مُنشئها خالد بن عبدالله القسري الذي ولي مكة للوليد بن عبدالملك ثم لهشام، وكانت تسمى أيضاً بركة البردي وهي بفم الثقبة (الأزرقي ٢ / ٦٢، ٦٥ ـ ١١٣) وكانت عند بير ميمون، فعملها بحجارة منقوشة طوال وأحكمها وأنبط ماءها في ذلك الموضع، ثم شق لها عيناً تسكب فيها من الثقبة وبنى سد الثقبة وأحكمه، والثقب شعب يفرغ فيه وجه بئير، ثم شق من هذه البركة عيناً تجري إلى المسجد الحرام (الأزرقي ٢ / ٨٥) وكانت فيها أسماك (٢ / ١١٣).

ويذكر الأزرقي أن المأمون أمر صالح بن العباس في سنة ٢١٠ «أن يتخذ له بركاً في السوق خمساً لئلا يتعنى الناس إلى بركة أم جعفر، فأجرى عيناً من بركة أم جُعفر من فضْلِ مائها في عين تسكب في بركة البطحاء عند شعب ابن

يوسف في وجه دار ابن يوسف ثم يمضي إلى بركة عند الصفا، ثم يمضي إلى بركة عند الحناطين، ثم يمضي إلى بركة عند الصفا ثم يمضي إلى بركة بفوهة سكة الثنية دون دار أويس، ثم يمضي إلى بركة عند سوق الحطب، ثم إلى الماجلين الذين في حايط ابن طارق بأسفل مكة (الأزرقي ٢ / ١٨٧).

وذكر الأزرقي حياض زمزم، وحياض ابن هشام وهذه بمفضى مأزمي منى (٢ / ٢٢٤) ولعل هذه الحياض هي بئر القسرية التي حفرها خالد القسري بأمر من هشام بين مأزمي منى، في الثنية التي عن يسار الذاهب إلى مِنى من مكة (الأزرقي ٢ / ١٦٥).

العيون:

ذكر الأزرقي أن معاوية اتخذ عشرة حيطان (بساتين) في مكة لكل منها عين ومشرع، وذكر مواقع هذه الحيطان فقال: كان معاوية بن أبي سفيان قد أجرى في الحرم عيوناً واتخذ لها أضياناً فكانت حوايط، وفيها النخل والزرع منها:

١ ـ حايط الحمام وله عين، وهو من حمام معاوية الذي بالمعلاّة إلى موضع بركة أم جعفر، وكان معاوية بعد هو الذي عمله وملأه عجدة.
٢ ـ حائط عوف. . وكانت عين تسقيه، وكان فيه النخل.
٣ ـ حائط الصفى.
٤ ـ حائط مورش وكان فيه النخل والزرع.
٥ ـ حائط خرمان وكان فيه النخل والزرع حديثاً من الدهر.
٦ ـ حائط مقيصرة. . وكان فيه النخل.
٧ ـ حائط حراء. . وكان فيه النخل.
٨ ـ حائط ابن طارق بأسفل مكة. . وكان فيه النخل.
٩ ـ حائط فخ.
١٠ ـ حائط بلدح.

وأضاف الأزرقي حائطي ابن العاصي، وسفيان في بلدح، ثم قال: وكانت عيون معاوية تلك قد انقطعت وذهبت فأمر أمير المؤمنين الرشيد بعيون

منهـا فعملت وأحييت وصـرفت في عين واحـدة يقال لها «الرشا» تسكب في الماجلين اللذين أحدهما لأمير المؤمنين الرشيد بالمعلاّة، ثم تسكب في البِركة التي عند المسجد الحرام.

ونشير إلى السـد الـذي عنـد الطائف، ويروى أنه بُني في زمن خلافة معاوية بن أبي سفيان وهو يمتد على بعد ستة أميال شرقي الطائف وهو مبني من الجرانيت، ويبلغ طول الجزء الباقي منه الآن خمسة وثمانون متراً ويبلغ ارتفاعه بين ٢٥ / ١٠ ـ ٥ / ٩ متراً وقد وصفه توبنشل في كتابه عن المملكة العربية السعودية (ص ٥٠) كما وصفته الدكتورة سعاد ماهر في دراستها لآثار الحجاز (عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الحجاز ٤٨).

المدينة: الوديان والسدود:

أما المدينة فإنها تختلف عن مكة من حيث إنها تقع في أرضٍ منبسطة واسعـة تقع حولها مرتفعات أو جبال منخفضة منعزلة وغير متواصلة، وتخترق الأجـزاء الجنـوبية منهـا عدد من الـوديان، وأهمهـا وادي العقيق، وبطحان، ومهـزرو، ومـذينيب، ورانونا تجري فيها مياه تكفي لقيام المزارع وخاصة من النخيل والشعير وبعض الخضر، وفي بعض الأوقات يزداد الماء في هذه الوديان فتهدد ما حولها بالغرق، مما يتطلب إقامة ما يمنع الغرق كما أنه يتطلب فتح قنوات لزراعـة الأراضي البعيدة عن الوديان.

وكان خطر الفيضان خاصة من مهزور الذي يتخوف منه الغرق على أهل المـدينـة وكـان سيل مهزور إذا طغا وخيف على المدينة يصرف ماؤه إلى بئر المـرانية، غير أنه سال في ولاية عثمان سيلاً عظيماً وخيف على المدينة منه الغرق، فعمل عثمان الردم الذي عند بئر مدري ليرد به السيل عن المسجد وعن المدينة (تاريخ المدينة المنورة ١٦٩).

وفتح عثمان بن عفان من وادي العقيق خليجاً يسمى خليج بنات نائلة ليسقي الأرض التي امتلكتهـا بنـاتـه من زوجتـه نائلة (تاريخ المدينة المنورة

١٦٦)وذكر المجد أن هذا الخليج كان عند الجرف ومن أمواله بئر جشم وبئر جمل، وأنه استعمل فيه ثلاثة آلاف من سبي بعض الأعاجم (وفاء ٢ / ٢٨٠).

وأنشأ عبدالله بن عمرو بن عثمان سداً على رانونا ليرفع الماء ويسقي مزارعه (تاريخ المدينة المنورة ١٦٨)، (وفاء الوفا ٢ / ١٢١، ٣٣٥).

وذكر السمهودي أن معاوية أنشأ سداً بين المدينة والرحضية في شعب فوفر فيه ماءً كثيراً (وفاء ٢ / ٣٢١)، وذكر أيضاً سداً بقرب عير يعرف في زمنه بسد عنتر، وسد الصهباء عند صبر (وفاء ٢ / ١).

الآبار:

تجري وديان المدينة في الأطراف الجنوبية والغربية، كما يجري وادي قناة في أقصى الطرف الشمالي، أما النواحي الأخرى التي تكوِّن أكثر أرض المدينة فتعتمد على الآبار التي لم تكن مياهها عذبة، ويروي موسى بن طلحة أنه: لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء (معجم البلدان ١ / ٤٣٢) وكانت مياه الآبار للشرب والغسيل، كما كانت لري المزارع، ونظراً لكلفة حفر الآبار وأهمية الماء، فقد كان ثمنه غالياً، ويروي موسى بن طلحة أن صاحب بئر رومه كان يبيع منها القربة بمُدّ. (معجم البلدان ١ / ٤٣٢، وفاء الوفا ٢ / ١٣٧).

وكانت أثمان الآبار عالية، وخاصة بعد تزايد سكان المدينة في زمن الراشدين، فبئر جشم في رانونا، وكان لرجل من غسان، بيع في زمن خلافة عمر بن الخطاب بثلاثين ألف درهم (الموطأ ٢ / ١٣١، البكري ٣٨٣، وفاء الوفا ٢ / ٢٥١).

وبئر روما اشتراها عثمان بمبلغ اختلف الرواة فيه بين عشرين ألفاً وأربعين ألفاً (تاريخ المدينة المنورة، وفاء الوفا ٢ / ١٣٧، معجم البلدان ١ / ٤٣٢).

وقد دفعت هذه الأوضاع بعض أغنياء الصحابة إلى التبرع بالآبار وجعلها صدقة، فقد تبرع عثمان بن عفان ببئر رومه، وتبرع أبو طلحة الأنصاري ببئر حاء (البكري ٤٣١).